ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ[2] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية في إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصها هنا في أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحلَّ له في قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ثم قيد هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٠١) : « ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حُسْن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لمَّا خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوُّج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٤٩١) : « اختلف العلماء في إحلال الأمة الكافرة للنبي ﷺ على قولين :

الأول : تحل لعموم قوله ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم .

الثاني : لا تحل تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟ » .

فالحـق سبحـانه يأتى بالمخـفَّف فى أشيـاء ، ثم يأتى بالمـثقَّل ؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيِّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ .. (٤٣)﴾ [التوبة] قبل أنْ يعاتبه بقوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وهذه الآية ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] توضح أنَّ ما شُرِع لرسول الله فى مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعـالى فى المـعدود لا فى العـدد ، والفـرق بين الاستـثناء فى العـدد والاستثناء فى المعدود أن العدد يُدَار فى أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عـدد تسع ثم تُوفِّـين لكَان له أن يتـزوج بتسـع أُخَر ، وإنْ مـاتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .

لكن الاسـتثنـاء لم يكُنْ لرسول الله فـى العدد كـأمـته ، إنمـا فى المعـدود ، بحيث يقتصـر على هؤلاء بخصوصـهن ، والحكمة فى ذلك أن التى يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خـلاف زوجات رسول الله ، فـإنهن أمهـات للمؤمنين ، فـلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .

ثم أوضحنا أن مسألة مِلْك اليمين ليستْ سُبَّة فى جبين الإسلام ، إنمـا هى ميزة مـن ميزاتـه ، فالله ملّك الرقـبة ليـحميـها من القـتل ، والمـقـارنة هنا ليـستْ بـين رق وحـرية ، إنمـا بين رق وقـتل كـمـا أوضحـنا ، والذى يتأمل حـال المملوك أو المـملوكة فى ظـل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول فى أول السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ .. ﴿١﴾ ﴾

(١) قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله وزوجته مُوَلِّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ . قال أنس : فما أدرى آأنا أخبرت النبى ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال أنس : فانطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووُعظ القوم بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية .. أورده القرطبى فى تفسيره (٥٤٩٢/٨) .

[الأحزاب] أمر أمته بذكْره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كذلك عن أمر يتعلق بأمته في قوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] ليُبيِّن عموم نَفْعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقلنا : إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتربية والإنعام والتفضُّل ليس خاصاً بالمؤمنين ، بل لكل مَن استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

فالشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروى أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب للكل ، فالذى يُحسن أَخْذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصيبه موقوتاً بمدى الربوبية فى الدنيا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شحاذاً يستجدى قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خَلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أَوْلَى بالمؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عن ركْب الحضارة ، وإنْ كانت الحضارة التى وصل إليها الكفار اليوم حضارة فى الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ فى هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هذه البلاد وتنزل مثلاً فى فندق ـ كما نزلنا ـ تجد مكتوباً على باب الحجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك . إذن : ارتقوا فى شىء ، وانحدروا فى أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم فى الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْل للفرد فى العالم تجده فى السويد ، ومع ذلك تكثر عندهم الأمراض النفسية والعصبية والانتحار والجنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّرتْ هذه البلاد حضارة مادية ؛ لأنهم أخذوا بأسبابها ، فأتقن كُلٌّ عمله ، وأعطى وقت العمل للعمل ، فما بين الثامنة إلى الثانية عشرة لا تجد إنساناً فى الشارع ، ولا تجد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضيع وقت العمل ، وفى وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادى ، فالذى لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمد لله أن شبابنا تنبهوا إلى أهمية العمل وتخلَّوْا عن الطفولة التى كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سبحانه هنا يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله ، ويجعله لنا قدوة ، فهو ﷺ عاش عيشة الكفاف مطعماً وملبساً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجرات ، لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة ، فليس لديه حجرة صالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة فى مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله فى بيوته .

فقال سبحانه ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أى : للمبيت فيه ، والمبيت فى الأغلب الأعَمّ لليل ، فهو محل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلُّ الحركة ، ولابد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ؛ لذلك سُمِّى البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّى الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ؛ لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعانى تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقى رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً - يعنى : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أى : التى لا زينة لها[1] - ما لم تُزيِّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبى والمعرى وشوقى .. إلخ .

والبيتوتة فى كل شىء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً . وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عقل) : « العاقلة لا تحمل السِّنَّ والإصبع والموضحة وأشباه ذلك » . والأوضاح : حلْى من الدراهم الصحاح .

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا فى الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعنى : بالليل (لا يحرث) يعنى : بالنهار ؛ لأن الإنسان إن انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة فى الليل أو فى النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التى تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة فى ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل .

والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوى إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعى مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .

وكما يتفاوت الناس فى البيوت ، كذلك يتفاوتون فى ترف الحياة وأسباب الراحة فى البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغى أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .

وكما يقول المثل (على قدر لحافك مدّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضَياً به ، وإنْ تمردَّتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذى يوفر لك ما تتطلع إليه .

وآفة الناس فى اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفى الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أُحدِّد مستوى حياتى على ضوء دَخْلى وإمكاناتى ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شىء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعى الحلال فى الكسب وفى الإنفاق .

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغى أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتلىء قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .

إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما فى أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب آباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذى يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذى يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذى عرق وكدَّ ولم يجد ثمرة عرقه ؟

فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل فى شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة ؛ لذلك يراعى سيدنا رسول الله هذا المعنى فى قوله ﷺ :

« أعْطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه »[1] .

أما الذين يتسكعون في الشوارع أو على القهاوى فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ؛ لأنه لم يعرق به .

واقرأ إنْ شئْتَ قول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله فى نهابر »[2] والمهاوش هى الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هى الأبواب التى تُفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون فى نظرتهم إلى النعمة فى أيدى الآخرين فقوىُّ الإيمان ساعة يرى النعمة فى يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْلُ الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ؛ لأنه جَدَّ واجتهد .

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان ، وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرانى فى معجمه الصغير (١/٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم فى الحلية (٧/١٤٢) من حديث أبى هريرة ، فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل فى صحيح البخارى عن أبى هريرة ـ كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح والمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [لسان العرب ـ مادة : هوش] والنهابر : المهالك أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطني من نعمك ، المؤمن يرى في نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً لنعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .

أما غير المؤمن - والعياذ بالله - فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله في خَلْقه .

ونُسمِّي المساجد بيوت الله ، وسُمِّي المسجد بيت الله ؛ لأنه جُعِل خصيصاً لكي نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُعقد الصفقات في المساجد ، أو تُنشَد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية في بيت الله : « لا باركَ اللهُ لك في صفقتك »(١) وقال لمن نشد ضالته في المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك »(٢) .

لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى في وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية ؟

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذي في سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبْن لهذا » .

كذلك أنت صَنْعة الله وخلْقته ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة(1) ، ففى الصلاة ترمى بنفسك وترمى بهمومك ومشاكلك فى (أحضان) ربك ؛ لأنه سبحانه أعطى الكون أسباباً ، فإذا عزَّتْ عليك الأسباب ولم تُفدْكَ بشىء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله الله قِبْلة كل البيوت ، فإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

نعود إلى بيوت النبى ﷺ وما ينبغى أنْ يتحلى به المؤمنون من أدب فى دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَى فى دخول هذه البيوت بالذات ؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : لا تتهجَّموا عليها ؛ لأنها ضيِّقة وليستْ فيها سعة للاستقبال فى كل الأوقات ، والإذن هنا مُقيَّد بالطعام ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

وحتى إذا دُعيتَ إلى طعام رسول الله لا تذهبْ إليه قبل وقته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ؛ لأنه لا يليق بك أن تشغل رسول الله وله فى بيته مهمات يجب ألاّ

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إَنَى) على وزن رضا ، وفى لغة : أنىٰ أنياً مثل : رمى رمياً .

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فكما نهاهم فى أوَّليَّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشيء حيِّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسْلها ؟ لماذا ؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه فى حيِّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكى يجفَّ ، إذن : فى الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : تفرَّقوا ؛ لأن المكان الذى أنتم فيه فى بيت النبى ضيِّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه ؟ أنْ يسعى فى مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعي وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتم طعامكم ؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) في بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عيشَة الكفاف في كل شئون حياته ؟

ومن معاني الانتشار : السياحة ، وهي مأخوذة من ساح الماء إذا فاض ، وأخذ حيِّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغي أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك في انتشاركم في الأرض للسعي في طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس في مكان أو زحام ، في حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة في الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده منَّا لغايتين :

الأولى : الضرب في الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضرب في الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت في أنحاء الأرض بالتساوي ، ونثر فيها الخيرات ؛ لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمَتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز المطمورة فى أرض الله ، وكل أثر كنزىٌّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أن قلنا : الضرب إيقاع شىء بقوة .

كنا نتعجَّب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولى فى البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السياحة للاعتبار والتأمل فى آيات الله فى كونه ، فبالتنقل والسير فى الأرض أرى آيات ليست موجودة فى بيئتى ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** (٢٠) ﴾ [العنكبوت] ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿ **قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ..** (١١) ﴾ [الأنعام]

والمعنى أن السَّيْر فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى**

النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ.. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أي: لا ينبغي أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث، وتجعلوها (سهراية) في بيت رسول الله، وهذا النهي كان له سبب وحادثة وقعتْ، فنزلت هذه الآية. سيدنا رسول الله لم يُولم وليمة في عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش، فذبح ﷺ شاة، وأعدَّ لهم الحَيْس، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب.

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا، فلم يَقُمْ منهم أحد، وحياؤه ﷺ يمنعه أنْ يقول لهم: قوموا، فأراد ﷺ أنْ يُظهر لهم أنه يريد أنْ يقوم، وقام فعلاً وخرج، فلم يقُم منهم أحد ووجَد ﷺ آخرين جالسين بالخارج، فعاد إلى مجلسه، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا.

يقول سيدنا أنس: فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا، فجاء ﷺ ودخل، فذهبت لأدخل وراءه، فألقى الحجاب بيني وبينه - يعني: لا أحد يدخل حتى أنت.

ومعنى: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] لأنه ﷺ يريد أنْ تنصرفوا، لكن يمنعه حياؤه، وهذا لأن المكان ضيِّق، ورسول الله في يوم عُرْس، وليس من المناسب الجلوس عنده.

﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] لذلك قالوا[1]: حَسْبُ الثقلاء أن الله لم يحتملهم. هكذا حدثتنا الآية في صدرها عن:

---

(١) قاله ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي أنه قال: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. [ذكره القرطبي في تفسيره ٥٤٩٢/٨].

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدَّثنا بعد ذلك عن الآداب التى يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون فى علاقتهم بزوجاته ﷺ : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

المتاع : أوانى البيت التى لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون فى الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون .. إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التى يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها فى بيته .

إذن : الحق سبحانه فى حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله فى الدخول عليه أو الأكل فى بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده ﷺ من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسْأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبى فاطلبوه من وراء حجاب ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى تستقرُّ فى النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وإما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها فى البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا فى الإدراك ، ولا فى الوجدان ، إنما يتدخل فى النزوع ، فلَكَ أنْ ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أهى حَقٌّ لك ؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهى مُحرَّمة عليك لأنها ليستْ ملْكك ، وليس فى هذا حَجْراً على حريتك ؛ لأن الذى قيَّد حريتك فى الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين فى الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك إذن : فالشرع فى صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا فى علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع فى هذه الحالة ؟ والنزوع فى هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد فى أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع فى هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع فى المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك ؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج فى الرجل معانى خاصة .

وفى ذلك يقول الشاعر[1] :

سُبْحانَ مَنْ خَلَق الجَماَ ... لَ والانْهزَام لسَطْوته
وَلـذَاكَ يأمُـرنَا بغَـضٍّ ... الطَّرْف عنـه لرحمـته
من شـاء يطْلبـه فـلا ... إلاَّ بطُهْـر شـريعته
وبذَا يـدُوم له التمـتُّع ... هَاهُـنَـا وبجـنَّته

أما الذى يدَّعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغنى بجمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدم ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

ورُوى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

على رســول الله ﷺ[1] .

فمعنى ﴿ذَٰلِكُمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] أى : أمرنا بأنْ تسـألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احـتياط للطرفين ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقـوله تعـالى : ﴿وَمَـا كَـانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى ولا يكون ، وهذا يعنى أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً ؛ لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق رسول الله .

وقوله : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] هذا تكريم لرسـول الله ولأزواجه ليس فى مـدة حيـاته فحَسْـب ، إنما حتى بعد مماته ؛ لأنهُنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

---

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] ، ولكن اختلف فى تحديد هذا الرجل .

– قال ابن عبـاس فى رواية عطاء : قاله رجل من سادة قريش . ذكره الواحـدى فى أسباب النزول (ص ٢٠٦) .

– وقال ابن عباس أيضـاً ـ ليزيد الأمر تحديداً ـ : قال رجل من سادات قـريش من العشرة الذين كـانوا مع رسـول الله ﷺ على حـراء فى نفسـه : لو توفى رسـول الله ﷺ لتـزوجت عائشـة ، وهى بنت عـمي . ذكره القـرطبى فى تفسـيره (٥٤٩٧/٨) نقـلاً عن القشـيرى أبي نصر عبد الرحيم .

– قال قتادة ومقـاتل ومعمر والسدى أنه طلحة بن عبيـد الله ، بل إن السدى نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه . انظر الدر المنثور للسيوطى (٦٤٣/٦).

قال ابن عطية : هذا عندى لا يصح على طلـحة بن عبيد الله . قال شيـخنا أبو العباس : وقد حُكى هذا الـقول عن بعض فضـلاء الصحابـة . وحاشاهم عن مـثله والكذب فى نقله ، وإنما يليق مثل هذا القـول بالمنافقين الجهال . نقله القرطبى فـى تفسيره (٥٤٩٧/٨) ثم قال : يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة ، وحفـصة بعـد خنيس بن حذافـة : ما بال محـمد يتـزوج نساءنا ، والله لو قد مـات لأجلْنا السهام على نسائه ، فنزلت الآية فى هذا .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصيةً ، فعادةً فى طبيعة التكوين الإنسانى ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته .. إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهى فى حوزته وملْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هى المتاع الوحيد الذى يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا ؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعفَّة ونقاء ، فوضع فى قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

لذلك ، تأمل هذا الوصف الذى وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم فى أملاكهم وفى بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان فى مكين .

فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر] فكأنهم يسكنون فى الإيمان ﴿ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شىء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هى المسألة التى تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغى على كل ما عداه ، وصار أحبَّ شىء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .